الفصل الثاني

انتشار الإسلام وحركة التعريب في مصر

الفصل الثاني

انتشار الإسلام وحركة التعريب في مصر

أولا : انتشار الإسلام :

دخل الإسلام مصر بدخول الجيش الإسلامي ، وقد أسلم عدد كبير من المصريين أثناء الفتح وساعدوا القوات الإسلامية في مهامها[١].

كان العرب يخيرون أهالي البلاد المفتوحة بين ثلاثة أمور هي الإسلام أو الجزية أو الحرب [٢] ، وكان الدافع لمن أسلموا هو رغبة بعضهم في اعتناق دين الطبقة الحاكمة ، كما أسلم البعض الآخر عن إيمان واعتقاد.

أخذ العرب بعد فتحهم لمصر يتحببون إلى الأقباط أملا في ضمان ولائهم وإخلاصهم ، فكان المسلمون يشتركون في عصر الولاة مع الأقباط في الصلاة من أجل النيل إذا كان الفيضان منخفضا ، كما أن الفتح ساعد على إحياء اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانية.

وترك العرب مقاليد الأمور في يد أهل مصر من الأقباط محتفظين لأنفسهم بالسيادة العليا وتنفيذ أحكام الدين ، وحل الأقباط محل الروم الذين غادروا مصر والذين كانوا يشغلون كثيرا من الوظائف ، وأصبح لهم نصيب كبير في إدارة البلاد[٣] .

تمتع الأقباط بحريتهم الدينية في ظل الحكم الإسلامي ، حيث قاموا ببناء وتجديد العديد من الكنائس ، مثل كنيسة القديس مرقص التي تم بناؤها بالإسكندرية أثناء ولاية

---

(١) يوحنا النقيوسي: تاريخ مصر رؤية قبطية للفتح الإسلامي ، ترجمة ودراسة تاريخية ولغوية ، عمر صابر أحمد خليل ، عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ،٢٠٠٠م.

2 -Devonshire, L' Egypte m.p.14.

(٣) سيدة كاشف: عصر الولاة ص١١٦.

عمرو بن العاص الثانية[١] ، وشيدت أول كنيسة في الفسطاط أثناء ولاية مسلمة بن مخلد[٢] .

و أثناء ولاية عبد العزيز بن مروان لمصر تم تشييد كنيستا مارجرجس وأبوقير داخل قصر الشمع وكنيسة حلوان[٣] ، وشهد العصر الأموي بناء العديد من الكنائس وخاصة أثناء خلافة هشام بن عبد الملك[٤] ، كما تم تجديد كنيسة الروم زمن الخليفة المأمون العباسي .

وكان للمضايقات الاجتماعية والأدبية التي تعرض لها الأقباط أثرها في حمل بعضهم على ترك دينهم هربا منها ، وحتى يصبحوا على قدم المساواة مع المسلمين أو فرارا من الضرائب المتزيدة عليهم ، أو رغبة في الإبقاء على مناصبهم[٥]

وهذه المضايقات التي كان يتعرض لها أهل الذمة لم تكن دائمة ، وإنما حدثت في فترات متقطعة ، كما أنها لم تكن على قدر كبير من الشدة إذا قورنت باضطهاد المسيحيين خلال عهد الإمبراطور الوثني دقلديانوس (٢٨٤/٣٠٥م) ، أو عهد الإمبراطور هرقل ، واضطهاد المسيحيين لإخوانهم المسيحيين المخالفين لهم في المذهب.

وهنا نتساءل إلى أي مدى تم تطبيق هذه الشروط والتعليمات التي فرضت على أهل الذمة ، فنجد أن معظم الكتابات التاريخية تذكر أن هذه الشروط كانت تحترم حين صدورها فقط ، ثم سرعان ما تتبدد ، ويؤكد ذلك كثرة المراسم والفتاوى التي كان يصدرها الخلفاء وولاة مصر الإسلامية ، فعلى سبيل المثال نجد أنه في عهد أيوب بن شراحبيل(٩٩-١٠١هـ) عطلت حانات الخمر بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز ، كما تم عزل الأقباط عن مناصبهم ، وتميزهم عن المسلمين في ملبسهم وركوبهم[٦].

(١) المقريزى : الخطط جـ٤ ، ص٤٩٢.
(٢) سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام ، ص١٧٢.
(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ، ص١٣٢ ، السيوطى: حسن المحاضرة جـ١ ، ص٦٨.
(٤) سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام ، ص١٧٢.
(٥) أحمد عبد الرازق: تاريخ وآثار مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص٤٧.
(٦) ساويرس بن المقفع: سير الآباء البطاركة ، جـ٥ ، ص٢٤،٢٥،٧١.

وفى سنة ١٠٤هـ أصدر الخليفة يزيد بن عبد الملك قرارا بكسر الصلبان ومحو الصور والتماثيل فى الكنائس[١] ، وأثناء ولاية على بن سليمان العباس (١٦٩هـ -١٧١ هـ) أثناء خلافة الهادي والرشيد تم منع الملاهي والخمور، وهدم الكنائس المحدثة في مصر[٢] ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن هذه الأوامر كانت تنفذ حين صدورها بمنتهى الدقة ، وكان التمسك بها يقل تدريجيا بمرور الوقت ليعود المسلمون لسياسة التسامح التي اتسموا بها إزاء أهل الذمة .

وما يهمنا من دراسة هذه المضايقات أنها كانت أحد العوامل التي دفعت بعض الأقباط إلى اعتناق الدين الإسلامي بعد أن اقتنعوا به ووجدوا فيه حياة تقوم على الحرية التي لم ينعموا بها من قبل ، فليس من المعقول أن هذه المضايقات البسيطة التي لا تقارن بالاضطهاد تكون سببا رئيسيا في ترك القبط دينهم ، ويؤكد ذلك أنهم تحملوا الكثير من ألوان التعذيب والاضطهاد على عهد البيزنطيين ، وفضل الكثير منهم الهرب إلى الصحراء أو الاستشهاد متمسكا بعقيدته ودينه.

إلى جانب المضايقات الاجتماعية والمعنوية التي تعرض لها أقباط مصر في ظل الحكم الإسلامي ، وجدت بعض المضايقات المادية التي يرى البعض أنها كانت سببا في دخول كثير من المصريين الإسلام للتخلص من الجزية التي فرضت عليهم وكان مقدار هذه الجزية دينارين على كل شخص قادر على القتال دون الأطفال والشيوخ والنساء والمرضى ، أي أنها بمثابة ضريبة دفاع مقابل حماية الأرواح والممتلكات ، وبدلا نقديا مقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية

وقد اهتم العرب بجمع الجزية حتى قيل أن الخليفة سليمان بن عبد الملك(٩٦-٩٩هـ/٧١٤-٧١٧م) كتب إلى أسامة بن زيد التنوخى متولي خراج مصر ما نصه "احلب الدر حتى ينقطع ، واحلب الدم حتى ينعدم"[٣] ، وقيل أيضا أن عمر بن عبد العزيز أمر

(١) الكندى: ولاة مصر ، ص٦١.
(٢) سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام ، ص١٨٧.
(٣) أبو المحاسن: النجوم، جـ١ ص٣٣١.

حيان بن سريج عامل خراج مصر بأن يجعل جزية موتى الأقباط على أحيائهم، مما كان سببا في إسلام كثير من أقباط مصر الذين أرادوا التخلص من هذه الجزية، وقد تزايد عددهم بصورة كبيرة زمن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز مما أدى إلى تناقص الخراج، حيث كان خراج مصر زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه (٢٣-٣٥هـ/٦٤٣-٦٥٥م) أثنى عشر مليون دينار، وأخذ هذا المبلغ يتناقص إلى أقل من النصف على عهد معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ)، فبلغ خمسة ملايين دينار، وبلغ أقل من ذلك خلال عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز(٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧١٩م)، مما جعل والي مصر في ذلك الوقت أيوب ابن شرحبيل يرسل إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز يقترح عليه استمرار تحصيل الجزية ممن أسلم، فإذا بالخليفة يعنفه ويقول له: "قبح الله رأيك، فإن الله إنما بعث محمدا ﷺ هاديا ولم يبعثه جابيا ..." (١).

وظل تحول الأقباط نحو الإسلام يتقدم بمعدل ثابت حتى أصبح معظم أهل مصر مسلمين في أوائل القرن الثالث، بدليل اختفاء ثورات الأقباط في مصر اعتبارا من سنة ٢١٩هـ/٨٣٤م، فضلا عن استمرار تناقص الأسماء القبطية في أوراق البردي، وزيادة الأسماء الإسلامية حتى انتهى الأمر بغلبة أسماء المسلمين على أسماء المسيحيين، مما يؤكد ازدياد انتشار الإسلام بين أهل مصر وتحول الأقباط تباعا إلى الدين الجديد(٢)

وهكذا يتبين أن المسلمين حملوا معهم إلى مصر أثناء الفتح دينهم ولغتهم وسموهم الروحي والخلقي، وحملوا معهم ثقافة عربية هي مزيج من جهودهم وخبرتهم في ميادين السياسة والاقتصاد، ومن إنتاجهم الأدبي في الشعر والخطابة والحكم والأمثال، ولغة فياضة مرنة تجلى غناها وبلاغتها في القرآن الكريم(٣)، ومن ثم عملوا على نشر الدين الإسلامي في مصر، وأقبل عليه الأقباط لأنه كفل لهم الحرية، ودخلوا فيه عن اقتناع وإيمان بعد أن شهدوا سياسة التسامح التي اتبعها المسلمون منذ البداية، وكانت المضايقات

(١) المقريزي: الخطط، جـ١ ص٧٨.
(٢) سيدة كاشف: عصر الولاة، ص١٢٩.
(٣) سيدة كاشف: مصر الإسلامية وأهل الذمة ص٢٦.

الاجتماعية والأدبية سببا في دخول بعض الأقباط في الإسلام ، كما كانت الجزية سببا آخر في إسلام بعضهم ، حيث اعتنق الإسلام الكثير منهم هربا من دفع الجزية ، ورغبة منهم في الحصول على نفس الحقوق والواجبات التي تمتع بها المسلمون بدخولهم في الإسلام.

انتشر الإسلام بطبيعة الحال أولا في المدن المصرية الكبرى ، حيث اقتصر وجود العرب بها في بادئ الأمر ، ثم أخذ في الانتشار في الريف بعد أن نزل العرب الريف وأقاموا به واختلطوا بأهالي البلاد.

ثانيا انتشار اللغة العربية:

١- هجرة القبائل العربية.
٢- حركة الارتباع .
٣- تعريب الدواوين.
٤- إسقاط العرب من الديوان.

لم تكن اللغة العربية مجهولة في العالم قبل الفتح الإسلامي لمصر ، حيث نجد أن الرسائل التي بعث بها الرسول ﷺ إلى أشهر زعماء العالم في ذلك الوقت يدعوهم فيها للإسلام كانت باللغة العربية ، كما أن الرسالة التي رد بها المقوقس الحاكم الإداري لمصر في ذلك الوقت كانت بالعربية[١] ، وهذا يدل دلالة واضحة على وجود بعض من يعرفون العربية في مصر قبيل الفتح الإسلامي .

ومثلما حدث من انتشار الإسلام حدث انتشار اللغة العربية ، حيث بدأ العرب بعد الفتح الإسلامي لمصر في تعريبها ، وجعل اللغة العربية لغة رسمية ، والسبب في ذلك هو عدم معرفتهم باللغة القبطية[٢]، هذا بجانب أن اللغة العربية ضرورية لكل من اعتنق الإسلام ، وذلك لحاجته إلى حفظ فاتحة الكتاب وبعض آياته وسوره ، هذا بالإضافة إلى حاجة الأهالي حتى من لم يسلم منهم إلى الإلمام بلغة الحكام الجدد حتى يستطيعوا مخاطبتهم ، وتقديم شكاياته إليهم ، والتقرب إليهم ونيل الحظوة عندهم.

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٦٧.

2- Wiet: Le Egypte, P. 125

ساعدت هجرة القبائل العربية إلى مصر واستقرارها في مناطقها المختلفة على زيادة أعداد العرب والمسلمين بمصر، حيث أتت جموع وفيرة من العرب أثناء الفتح الإسلامي، وبعد الفتح كان هناك عوامل ساعدت على نزوح العرب إلى مصر منها، أن كل وال عربي كان يتولى أمر مصر كان يصحب معه أعدادا وفيرة من هذه القبائل ليكونوا عونا له في مصر، هذا بالإضافة إلى سياسة الخلفاء التي كانت تهدف إلى إرسال أعداد كبيرة لتعزيز الجندي العربي في مصر، هذا كله ساعد على زيادة أعداد العرب في مصر، وبالتالي ساعد ذلك على انتشار اللغة العربية بين المصريين.

ومن العوامل التي ساعدت على انتشار اللغة العربية أيضا سياسة الأرتباع التي فرضها عمرو بن العاص على جنوده، لكي ينتشروا في أقاليم مصر ليسمنوا خيولهم، وساعدت هذه السياسة على الاختلاط بأهالي البلاد مما ساعد على التعرف على لغتهم، ومشاركة العرب في نشر اللغة العربية بين القبط.

وكان على المصريين ترك دراسة اللغتين اليونانية والقبطية، وأن يسرعوا في تعلم اللغة العربية لتفتح أمامهم فرص العمل، أو ليحتفظوا بما في أيديهم من وظائف، ولم تؤد حركة التعريب إلى أي تذمر أو احتجاج من الأقباط إذا كان التعريب انتقالا من لغة أجنبية هي اليونانية إلى لغة أجنبية هي العربية، وكما تعلم الأقباط اليونانية واستعملوها في الدواوين على الرغم من أنها ليست لغتهم، فلماذا لا يتعلمون العربية ويستعملونها في الدواوين بدلا منها، ولا سيما وهى لغة المنتصرين ولغة سوف تفتح أمامهم أبواب الرزق[1] وتعريب الدواوين يعد عملية ترجمة واسعة النطاق ومنظمة أدت إلى نقل كثير من المصطلحات الفارسية واليونانية والقبطية إلى اللغة العربية[2].

ومن العوامل التي ساعدت على انتشار العربية إسقاط العرب من ديوان الجند حيث ظلت القبائل العربية تمثل أرستقراطية عربية فترة من الزمن، واختصت بشرف

(١) أحمد مختار عمر: تاريخ اللغة العربية ، ص٣٨.
(٢) أحمد عبد الرازق: تاريخ وآثار مصر الإسلامية ص٢٥٨ ، سيدة كاشف: مصر في عصر الولاة ، ص١٢٣.

الخدمة الحربية والدفاع عن البلاد ، وتمتعت أيضا بالحصول على العطاء من بيت المال ، واحتكرت المناصب الرئيسية في الولاية ، كما تمتعت بالإعفاء من دفع الخراج في حالة الملكية الزراعية ، ولكن بمرور الوقت انتشرت هذه القبائل في ريف مصر وقراها ، ولم ينته القرن الأول الهجري حتى كان العرب قد انتشروا في شتى مدن وقرى مصر ، وانخرطوا في مجتمعها ، وأقبلوا على الاشتغال بالزراعة إلى جانب الرعي واحتكار الجندية.

ولقد ظلت الأوضاع على هذا الحال حتى عهد الخليفة المعتصم بالله العباسي(٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤١م) ، الذي أرسل إلى واليه على مصر في تلك الفترة (كيدر نصر بن عبد الله) يأمره بإسقاط العرب من ديوان مصر وقطع اعطياتهم ، ففعل ذلك[١] ، ومنذ ذلك الوقت نزل العرب إلى ريف مصر وقراها يلتمسون سبل العيش ، وأصبحوا يكسبون أرزاقهم من الأعمال مثل الزراعة والصناعة والتجارة ، وانتهت الأرستقراطية العربية ليحل محلها الاختلاط بالأهالي، وتذوب الحواجز بين الجانبين وتتم أكبر عملية امتزاج بينهما ساهمت بنصيب وافر في تعريب مصر وصبغها بالصبغة العربية الإسلامية ، وذاب العرب في بوتقة الشعب المصري ، وتكون شعب مصري جديد أصبح معظمه يدين بالإسلام ويتحدث اللغة العربية[٢].

ويمكن القول أن انتشار اللغة العربية بمصر كان أبطأ من انتشار الدين الإسلامي ، إذ تشير الوثائق البردية إلى أن الحكومة كانت تستخدم اللغتين العربية واليونانية حتى القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي ، في الوقت الذي كانت فيه السلطات المحلية في الريف تكتب باللغة القبطية[٣] .

ويدل على تأخر انتشار اللغة العربية بين الشعب المصري أن الخليفة المأمون العباسي أثناء زيارته لمصر سنة٢١٧ هـ/٨٣٢م كان لا يمشي إلا والترجمة بين يديه من كل جنس[٤].

---

(١) الكندي: الولاة والقضاة ص١٩٣ ، المقريزى: الخطط جـ١ ص٩٤.
(٢) سيدة كاشف : مصر في فجر الإسلام ، ص٢٢٩.
(٣) سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام ، ص٢٣٠ ، أحمد عبد الرازق: تاريخ وآثار مصر الإسلامية، ص٨٥ ، متز: الحضارة الإسلامية، جـ١ ، ص٨٩.
(٤) المقريزى: الخطط جـ١ ، ص٨١.

وهكذا نجد أن العامل الأساسي لانتشار الإسلام واللغة العربية بين المصريين يرجع إلى الدين الإسلامي نفسه ، بجانب العوامل الأخرى التي أوضحناها سواء كانت مادية أو اجتماعية ، وذلك بسبب أن الدين الإسلامي يعد مجموعة من القوانين تنظم المجتمع حيث يحدد العلاقة بين الفرد وربه وأسرته ، وبين الأسرة والمجتمع ، وبين المجتمعات بعضها ببعض ، بل أنه ينظم علاقة الدول بعضها ببعض ، وينظم علاقة الغالب بالمغلوب ، أي أنه يعد نظاما دينيا واجتماعيا واقتصاديا وعسكريا وسياسيا(١).

هذا وقد وجد القبطي أن إله الدين الجديد إله واحد ، وليس فيه مشاكل المناقشة حول طبيعة السيد المسيح عليه السلام ، كما أنه وجد الدين ينظر إلى الناس على أساس من العدل والمساواة بينهم جميعا على اختلاف دينهم وجنسياتهم من خلق الله والفرق الوحيد بينهم هو التقوى ، ويؤكد ذلك قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾(٢) .

وكذلك قول الرسول ﷺ في حديثه الشريف: "اسمعوا وأطيعوا ولو لعبد حبشي كأن رأسه زبيبة".

وهكذا تضافرت العوامل السابقة من اعتناق الدين الإسلامي ، وتعريب الدواوين سنة ٨٧ هـ/٧٠٥م ، فضلا عن هجرة القبائل العربية واستقرارها بمصر ونزولها بالريف واختلاطها بالأهالي ، تضافرت جميعها في نشأة مصر العربية الإسلامية من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وعلى جعل اللغة العربية لغة التخاطب بين أهل البلاد.

(١) أحمد عبد الرازق: تاريخ وآثار مصر ، ص٥٩.
(٢) سورة الحجرات : الآية ١٣.

وهكذا نرى أن دعائم وأسس التعريب وانتشار الإسلام قد غرست في القرنين الأول والثاني الهجريين ، ثم عمت وانتشرت خلال القرن الثالث والرابع الهجريين ، حيث ظهرت الشخصية المصرية الإسلامية بعد اختلاط العرب بالمصريين.